الفصل الثامن

الاتجاهات الرمزية والتصويرية فى شعر إليوت

« الناس يغدون ويمرحون ، لكن سكرة الموت قابعة أمامهم . »
إليوت : « الرباعيات الأربع »

لقد ظهر ولع إليوت بالشعر منذ حداثته وكانت أول قصيدة أعجب بها هى رباعيات عمر بن الخيام التى ألمّ بها وهو فى الرابعة عشر من عمره ، وتبع ذلك قراءته للشعراء الميتافيزيقيين الذين ظهروا فى القرن السابع عشر فى إنجلترا ثم شعراء الرمزية فى القرن التاسع عشر فى فرنسا . ومما جذب انتباهه إلى الحركة الرمزية فى فرنسا ظهور كتاب عن « الحركة الرمزية فى الأدب » لمؤلفه آرثر سيمونز وذلك حينما أعيد طبعه سنة ١٩٠٨ (فلقد ظهر أولاً سنة ١٨٩٩) . وقد قرأه إليوت وألمّ بتفاصيله . وحين تولى تحرير مجلة (الكريتيريون) كتب فى عددها الصادر فى يناير سنة ١٩٣٠ يقول فى هذا الصدد :

« إننى مدين لمستر سيمونز بالشىء الكثير . فلولا قراءة كتابه لما سمعت عن "لافورج" و " ريمبو " سنة ١٩٠٨ ؛ ومن المحتمل ألا أكون قد بدأت بعد فى قراءة فيرلان ؛ ولولاقراءتى لفيرلان لما سمعت قط عن كوربيير . ولهذا فكتاب سيمونز هو أحد تلك الكتب التى أثرت فى مجرى حياتى »[1] .

لعلنا نلمح آثار هذه الحركة الفرنسية فى الأشعار الأولى لإليوت وبخاصة

(١) "I owe Mr. Symons a great debt. But for having read his book I should not, in the year 1908, have heard of Laforgue and Rimbaud; I should probably not have begun to read Verlaine; and but for reading Verlaine, I should not have heard of Corbière. So the Symons book is one of those which have affected the course of my life".

T.S. Eliot, "A Review of 'Baudelaire and the Symbolists' by Peter Quennell," *The Criterion*, January 1930, p. 357.

فى القصائد التى ظهرت على صفحات المجلة الأدبية لجامعة هارفارد التى لم تنشر بعد فى أى ديوان له ، إذ يقول فى قصيدته التى أطلق عليها اسم « الضغينة » .

« ها هى الحياة بحقارتها وشوائبها القليلة
بفتورها وتأنقها ومراودتها ،
تنتظر (كلاً منا) »[١] .

فلقد كتب شعراء الرمزية فى فرنسا من قبل عن سأم الحياة وما أطلقوا عليه اسم « تراجيديا الوجود » ، وأفاضوا فى تبيان مظاهر الضيق النفسى ، والفتور الذى يتناوبنا بين الفينة والأخرى ، ثم كل ما من شأنه تعكير صفو البشر من عقد مكبوتة ، ونوايا شريرة ، وآلام مريرة .

وهناك حركة أدبية أخرى تأثر بها إليوت وإن كان أثرها مقصوراً على مستهل حياته الشعرية وهى الحركة التصويرية[٢] التى وضع أساسها الفيلسوف والشاعر الناقد ت . إ . هيوم[٣] الذى التقى بغيره من الكتاب والشعراء فى نادى الشعر فى حى (سوهو) بلندن مساء كل يوم أربعاء . وهناك تبادل معهم الآراء بعد الاستماع لقراءة الشعر . وفى الخامس والعشرين من مارس سنة ١٩٠٩ كوّن هيوم جماعة من الشعراء تضم فلنت[٤] وجوزيف كامبل[٥] ومس فلورنس فار[٦] . وفى الثانى والعشرين من إبريل فى نفس السنة انضم إليهم الشاعر الأمريكى إزرا باوند[٧] ، وفى عيد الميلاد سنة ١٩٠٩ أصدروا كتيباً يضم بعض القصائد لهؤلاء الشعراء الذين أطلق عليهم باوند اسم التصويريين . ونظراً للصلة الوثيقة التى توطدت

---

(١) "And life, a little bald and gray,
Languid, fastidious, and bland,
Waits."
T.S. Eliot, "Spleen", *Harvard Advocate*, a photostatic copy from the Library of Harvard University, January 26, 1910, p. 114.

(٢) The Imagist Movement.
(٣) T.E. Hulme.
(٤) Flint.
(٥) Joseph Campbell.
(٦) Miss Florence Farr.
(٧) Ezra Pound.

أواصرها بين باوند وإليوت فى هذه الفترة فقد عرف الأخير الشىء الكثير عن هذه الحركة الأدبية التى تمخضت عن الإيمان الشديد بأهمية « التكنيك » فى الشعر وكذلك الإيقاع الموسيقى الذى يعبر عن مناطق الوجدان والاهتمام أيضاً بالوزن والنسق والبعد عن المصطلحات المتواردة التى تلوكها الألسن فى كل مناسبة .

لكن إليوت سرعان ما ضاق ذرعاً بهذه الحركة الأخيرة ، فتركها إلى غير رجعة ، إذ أنها وقفت حائلاً بينه وبين شغفه بالتعبير الحر عن الصورة الشعرية «البانورامية» التى تعكس فى ثنايا مكوناتها عناصر جوهرية عن حقيقتى الحياة والموت ومستويات الرؤيا والشفافية النفسية. ولعلنا نلحظ ذلك فى القصائد المشهورة التالية .

* * *

أغنية الحب لألفريد بروفروك[١]

ليست هذه أغنية بالمعنى المتعارف عليه إذ هى بالأحرى خواطر تجول فى ذهن بروفروك صاحب الشخصية التراجيدية ؛ فهو متألم غاية الألم لعجزه عن تحقيق رغباته وطموحه ومثله العليا . إنه رجل متردد إلى أبعد حد، كما يتضح لنا فى سياق القصيدة ، إذ يقول :

« دعنا نمضى إذن ، سويا
حينما تنتشر ظلمة الليل تحت صفحة السماء ،
كمريض مخدّر قد استلقى على منضدة العمليات »[٢] .

وقد يتبادر إلى أذهاننا لأول وهلة أن هذا الحوار قائم بين شخصيتين مختلفتين ، إنه فى الحقيقة حوار بين الأنا[٣] والهى[٤] لنفس الشخص (وهو بروفروك) ،

---

(١) "The Love Song of J. Alfred Prufrock".
يجد القارئ نصوصاً أخرى مترجمة من هذه القصيدة والقصائد التالية تحت عنوان « نصوص مختارة من مؤلفات إليوت » فى الجزء الأخير من هذا الكتاب .

(٢) "Let us go then, you and I,
When the evening is spread out against the sky
Like a patient etherised upon a table."
T.S. Eliot, *Collected Poems* : 1909-1935. London. 1958, p. 11.

(٣) The Ego.

(٤) The Id.

أو بين الشعور واللاشعور ، أو بين العقل الواعي المفكر وبين الذات الدفينة المختبئة فى بواطن النفس غير الواعية حيث الرغبات المكبوتة والدوافع الحبيسة . إنه عاجز عن تحقيق أية رغبة من رغباته ، فبروفرك يعوزه الإقدام . إنه يريد أن يدخل الحانة حيث النساء والخمر ، لكنه يقدّم رجلاً ويؤخر أخرى ، فهو مصاب بداء التردد ، كما تنقصه الشجاعة والقدرة على حل مشاكله العاطفية . إنه يميل إلى الانزواء داخل الطرقات الخاوية ، يسترق السمع لعله يجد صدى لمشكلته عند الآخرين . وهو يحاول جاهداً أن يعلل هذه الأمور كلها وبخاصة تردده المقيت فيختلق الأسباب إلى أن تمر بنفسه موجة من التوبيخ بعد طول الانتظار فيقول : « لا تسأل ماهو ؟ » إذ لا داعى إلى هذا السؤال ، فالخطوة الأمامية التى يخطوها نحو الحانة هى التى تهمنا الآن .

والنتيجة الحتمية لهذه الحالة النفسية أن يترك بروفرك رغما عنه عالم الواقع ليعيش فى عالم الوهم والخيال ، مختلقاً الأعذار الواهية ، إذ يقول :

« أفهل أجرؤ
أن أعكر صفو الكون ؟(١) »

ثم يطمئن نفسه بهذه الكلمات :

« لقد عرفت الناس جميعاً ، عرفتهم كلهم —
كما عرفت الأمسيات وأوقات الصباح وبعد الظهيرة ،
ونضب معين حياتى بملاعق القهوة ؛
إننى أعرف هذه الأصوات التى سرعان ما تتلاشى

---

(١) "Do I dare
Disturb the universe ?"
Ibid., p. 12.

(٢) "For I have known them all already, known them all-
Have known the evenings, mornings, afternoons,
I have measured out my life with coffee spoons;
I know the voices dying with a dying fall.

أمام أنغام الموسيقى المنبعثة من الحجرة البعيدة .
فكيف أعاود الكرّة إذن ؟[٢] »

لقد فشل بروفروك فى حبه فسمّم الحياة الدنيا التى أضحت بالنسبة له مجموعة من أقداح القهوة التى تحتسى ومجموعة أخرى من الأصوات الخافتة . لقد كان بوده أن يدخل الحانة ويقع فى غرام إحدى السيدات اللواتى يترددن عليها ، ولكنه كالمريض الذى أشار إليه إليوت فى مستهل هذه القصيدة غير قادر على الحركة . ترى

« هل لى بعد كل ذلك أن أرى قيمة فعلتى هذه ،
وما جدوى بذل الجهد فى سبيلها ،
بعد غروب الشمس وأفنية المنازل والطرقات المبللة ،
بعد قراءة القصص وتناول أقداح الشاى وظهور الجونلات
التى تجر أذيالها النساء على الأرض الخشبية —
كل هذا ، بل وأكثر منه أيضاً ؟
من العسير أن أفصح عما أعنيه بالضبط ! »[١]

بعد هذه الذكريات التى تمتد به إلى الماضى البعيد يغرق بروفروك فى بحر من التأملات ، فيتصور أنه الأمير هاملت ، ثم يعدل عن هذه الفكرة ويفضل أن يكون بولونيوس نديم الملك (فى مسرحية « هاملت » لشكسبير) ، ذلك أن هاملت متردد مثله ، أما بولونيوس فإنه يسدى النصح والإرشاد لغيره ، وهذا هو ما يحتاج

Beneath the music from a farther room.
So how should I presume ?"
Ibid., p. 13.

(١) "And would it have been worth it, after all,
Would it have been worth while,
After the sunsets and the dooryards and the sprinkled streets,
After the novels, after the teacups, after the skirts
that trail along the floor.
And this, and so much more ?
It is impossible to say just what I mean !"
Ibid., p. 14.

إليه بروفروك . وهكذا يستطرد بروفروك فى تأملاته داخل هذا الإطار من المنولوج الداخلى[١] إلى أن يصل إلى الحقيقة المرة . وهى أن هذه الأفكار التى هى بالأحرى هواجس ، تجره وراءها إلى عالم الأحلام . فلم تحقق له أى شىء من مأربه . فهى تقدم له مأوى مؤقتاً يختبئ فيه بعيداً عن أعين الناس وعالم الواقع بصخبه وضجيجه . فتجده يهرع إليه بكلياته ، حتى إذا ما تبين ضعفه ، عاد القهقرى لا إلى العالم الرحب الفسيح الذى يتسم بالعلاقات الاجتماعية الناضجة ، بل إلى عالم اللاشعور حيث الكبت والعقد النفسية . وهكذا يقف بروفروك فى حيرة بالغة فينتابه شعور بالنقص :

« أفهل أطرح شعرى إلى الخلف ؟ هل لى أن أتناول خوخة ؟
سأرتدى بنطلوناً من الفانلة البيضاء وأسير على الشاطئ .
لقد سمعت حوريات البحر وهن يناجين الواحدة منهن الأخرى .
لا أخالهن سيناجينني أيضاً »[٢] .

وهكذا يختلط شعوره بالنقص بأحلام يقظته وبفشله الذريع أمام إيجاد أى توافق بين الحقيقة والخيال ، وبين الرغبة والعمل على تحقيقها ، فيزداد ألمه ولوعته وبخاصة حينما يتبين له ذلك التناقض المرير بين حالته المخزية وعرائس البحر فى مناجاتهن وغنائهن ومرحهن . فنجده يسرع فى هروبه إلى عالم الفانتازيا الأول ليعاود الكرّة عله يستريح نفسياً ولو لبرهة يسيرة . وبعد أن أيقن هذه المرة من خجله الشديد الذى وصل به إلى حد الجبن ، تمنى لنفسه الموت ، فهو السبيل الوحيد أمامه الآن لدفن مشاكله النفسية والعاطفية .

* * *

(١) Interior monologue.
(٢) "Shall I part my hair behind ? Do I dare to eat a peach ?
I shall wear white flannel trousers, and walk upon the beach.
I have heard the mermaids singing, each to each.
I do not think that they will sing to me."
Ibid., p. 15.

صورة سيدة [١]

أما فى القصيدة التالية التى أطلق عليها إليوت اسم « صورة سيدة » نجد أن الموقف قد تغير ، فإذا بنا نقف أمام سيدة مسنة تحاول أن تكسب ود شاب يافع ، وهو محجم عنها يود أن يتخلص من حبها له . إنها عانس قد تخطت سن الزواج ووجدت فى هذا الشاب فرصة أخيرة لإلقاء شباكها عليها تفلح ، لكنه لم يعرها التفاتاً . فتحاول أن تجذبه بشتى الطرق والوسائل .

وعلة هذه المعرفة بين الشاب والسيدة المسنة : تلك المعرفة التى لم تصل بعد إلى منزلة الصداقة الكاملة ، أن هناك بون شاسع فى الميول والاتجاهات بالإضافة إلى فارق السن . فلقد تلاقيا أولاً فى الردهة ثم دخلا غرفة استقبالها التى أضاءتها أربعة من الشموع :

« فبين الدخان والضباب بعد ظهيرة يوم من أيام ديسمبر
تجد الموقف وكأنه معد لك — أو كأنه يبدو كذلك —
والسيدة تقول "لقد حجزت هذه الأمسية لك" ؛
الحجرة المعتمة تضيئها أربعة شموع
تعكس على السقف فوق رؤوسنا أربعة دوائر مضيئة ؛
يا له من جو شبيه بقبر جوليت »[٢] .

فالجو المحيط بهما خانق ، والسماء ملبدة بالغيوم ، والحجرة معتمة . وإن كان المنظر كله يوحى بالشاعرية نظراً لوجود الشموع والزهور ، إلا أنها شاعرية

---

(١) "Portrait of a Lady".
(٢) "Among the smoke and fog of a December afternoon
You have the scene arrange itself — as it will seem to do —
With 'I have saved this afternoon for you';
And four wax candles in the darkened room,
Four rings of light upon the ceiling overhead,
An atmosphere of Juliet's tomb.
Ibid., "Portrait of a Lady," p. 16.

مفتعلة ، فمكونات المنظر فى مجموعه غير متجانسة ، مع أن إليوت أراد أن يخلق جوًّا مسرحياً فى مستهل هذه القصيدة . فالحوار غير مكتمل لأنه قائم فى مخيلة السيدة أى أنه من جانب واحد . أما الشاب فقد قام بالتحليل السيكولوجى ثم التعليق على الموقف فى اقتضاب ، ولكنه فى كل ذلك لم يتمكن من اتخاذ رأى حاسم تجاه السيدة لأنه لا يريد أن يكدر صفوها فى الوقت الذى ينوى فيه جدياً أن يتخلص منها .

إنها تحدثه عن موسيقى شوبان عله يبدى رغبة فى الاستماع إليها ، لكنه سرعان ما يضيق بصوتها الأجش ، فيقول :

« دعينا نستنشق عبير الهواء خلال نشوة هذا التبغ
دعينا نشيد بهذه الآثار
ونتناقش حول الأحداث الأخيرة
ونضبط ساعاتنا وفق الساعات العامة
ثم نجلس نصف ساعة لنتناول شرابنا »[1] .

وبالرغم من توسلاتها له فإنه لم يذعن لها ، ولم يبد أى استعداد للشفقة عليها ، فهو مؤمن فى قرارة نفسه بصلابة رأيه ، قد يجنح أحياناً إلى التيه والكبرياء ، وهى صاغرة لأوامره ، ورهن إشارته ، وطوع بنانه . والمشكلة فى نظره الآن آخذة فى التبلور تدريجاً ، فهو يود أن يقطع علاقته بها نهائياً ، ولكن كيف السبيل ؟ إنه يوهمها بأنه سيقوم برحلة طويلة فى ربوع أوربا ، وهى لا تعرف شيئاً عن مصير الصلة التى بينهما ، فتردد هذه الألفاظ فى حشرجة خافتة مريرة :

---

(١) "Let us take the air, in a tobacco trance,
Admire the monuments,
Discuss the late events,
Correct our watches by the public clocks.
Then sit for half an hour and drink our bocks".
Ibid., p. 17.

« فى ليلة من ليالى أكتوبر الحالكة عدت إلى منزلى كعادتى
وقد انتابنى إحساس بوعكة طفيفة
وصعدت درج السلم وأدرت مقبض الباب
وشعرت فى الحال كأننى صعدت على ركبتى ويداى .
« أفهل سترحل إلى الخارج ، ولكن متى ستعود ؟
إنه لسؤال عديم الجدوى .
فأنت لا تعرف وقت عودتك ؛
على أية حال ستتعلم الكثير من ترحالك » .
وأنا هنا ألقى بابتسامتى المتثاقلة على هذه القطع الأثرية[1] » .

وهكذا هدأت العاصفة بعض الشىء وبخاصة بعد أن وعدها بأنه سيكتب لها كلمة أثناء رحلته . ثم يتركها ويمضى إلى حال سبيله ؛ فتنغمس عرى هذه المعرفة التى لم تتوطد بعد ، ويشعر الشاب بعد ذلك بأنه حر طليق ، وتطوف بخاطره فكرة عارضة لا تلبث أن تسيطر عليه ؛ فقد تموت هذه السيدة لتقدمها فى السن :

« حسناً ! وما عساها أن تعاجلها المنية بعد الظهيرة
فى يوم حالك ملىء بالدخان ، وأمسية وردية تميل إلى الاصفرار ؛
تموت ثم تتركنى جالساً وقد أمسكت بقلمى
والدخان ينحدر رويداً من أسطح المنازل ؛

---

(١) "The October night comes down; returning as before
Except for a slight sensation of being ill at ease
I mount the stairs and turn the handle of the door
And feel as if I had mounted on my hands and knees.
'And so you are going abroad; and when do you return ?
But that's a useless question.
You hardly know when you are coming back,
You will find so much to learn.'
My smile falls heavily among the bric-à-brac."
Ibid., p. 19.

وقد انتابنى الشك ، فلم أعرف
ما عسى أن أحس به أو ما بالى قد فهمته
ربما كنت حكيما أم أحمقا ، مثريثاً أم مثهوراً . . .
أليست النصرة حليفتها بعد كل ذلك ؟
لقد أفلحت هذه النبرات الموسيقية لأنها تنم عن حزن
ولأننا الآن نتحدث عن الموت —
ترى هل يحق لى أن أبتسم ؟ »[1]

وإلى هذا الحد الذى تنتهى عنده القصيدة نجد أن الشاب قد ارتضى لنفسه هذه الخاتمة كما ارتضى لصاحبته تلك الفاجعة بعد أن ارتسمها فى مخيلته . وهكذا سلبته هذه السيدة القدرة على الابتسامة لأنها أفلحت فى خلق جو يائس حوله ، ولهذا كانت للنبرات الموسيقية الحزينة وقع أليم فى نفسه . كما أن قراره الذى اتخذه إزاءها : ترى هل كان حكيماً أو أحمقاً ، مثريثاً أو مثهوراً فى ذلك ؟ إنها قد نجحت فى خلق تلك الحيرة التى خلفتها له ، فلم يهنأ بحريته التى كان ينشدها بعد فراقه لها ، ولم يستمتع بذلك الأمل المعقود حول رحلته الطويلة فى ربوع أوربا .

---

(١) "Well ! and what if she should die some afternoon,
Afternoon grey and smoky, evening yellow and rose;
Should die and leave me sitting pen in hand
With the smoke coming down above the housetops;
Doubtful, for a while
Not knowing what to feel or if I understand
Orwhether wise or foolish, tardy or too soon . .
Would she not have the advantage, after all ?
This music is successful with a 'dying fall'
Now that we talk of dying —
And should I have the right to smile ?"
Ibid., p. 20.